المعجم المدرسي أسسه وتوجهاته
معجم الطفل نموذجا

عبد الغني أبو العزم

الدار البيضاء

يعد التأليف المعجمي المدرسي حجر الزاوية في العملية التعليمية، لا لأنه يرتبط بمستقبل اللغة، وضمان ترسيخ الوعي بها وانتشارها وانتقالها من جيل إلى جيل، بل لأنه يساهم في بلورة شخصية الفرد، ويفتح أمامه أفق المعرفة وتحصيلها، وهذه الازدواجية في المهام تطرح إشكالات عديدة ومتنوعة، وفي مقدمتها المدونة المعجمية (nomenclature) باعتبارها قاعدة المنطلق، والمدخل الرئيسي لعملية الإنجاز المعجمي، وهذا ما يفرض ضرورة البحث والاستقصاء في مجمل المؤلفات المدرسية والأدبية والعلمية ورصد للغة الإعلام السمعية-البصرية والمكتوبة، ومقابلتُها بما هو رائج في لغات أجنبية وما أصبح متداولا بيننا تحت ضغط العامل الحضاري وارتباط الحضارات، وفي سياق المسايرة العلمية التي فرضها التطور التكنولوجي.

مفهوم الرصيد اللغوي:

يتحدد مفهوم الرصيد اللغوي الأساسي في كمية المفردات الضرورية والشائعة التي يكتسبها الطفل وما يستوعبه من مفاهيم كمحصول لغوي ليعبر من خلاله بلغته عما يريد التعبير عنه وتبليغ ما يريد قوله لغيره، وهو بهذا التوجه يعتبر مادة أولية للاتصال والتفاهم الأولي، لذا فإن إنجازه يعد ضرورة علمية لا غنى عنها، لبلورة خطط منهجية وتربوية في مجال العملية التعليمية، حيث يستفيد منها المعلمون والمربون والآباء وواضعو النصوص المدرسية والمعجميون.

ويشكل الرصيد اللغوي الأساسي من هذه الزاوية الضوء والمرشد والمعلمة الأساسية التي تحدد مجالات المتعلم التي ينبغي أن يرتبط بها المربي، وهكذا فإن تحديد الرصيد هو تحديد لمنهاج التأليف في ميدان التربية والتعليم، وإنجازه ليس من البساطة كما يمكن أن يتصور إذ لا بد كما يقول محمد رشاد الحمزاوي من تجديد "تاريخ ووصف وتحليل جميع

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 11–12 (1994)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1994.11-12.3

المحاولات التي سعت إلى وضع معجم معين مهما كان نوعه حتى تستقرئ الرصيد اللغوي للمعجمية العربية"[١].

إن من العيوب التي صاحبت التأليف المعجمي العربي اقتصاره على المتن القديم مما جعله يضع حواجز ما بين المستعمل والمتداول واللغة العربية القديمة، وكما أوضح ذلك عبدالقادر الفاسي: "إن الصناعة القاموسية العربية ظلت قاصرة عن تلبية حاجات مستهلكيها، لا تغطي المادة المعجمية الجديدة ولا المعاني الجديدة للمفردات، ولا تهتم بجوانب النطق والصرف والتركيب والدلالة بصفة نسقية منتظمة، وإنما تورد ما أوردته المعاجم القديمة من مداخل، دون الاهتمام بالأرصدة اللغوية الحديثة أو بالمادة اللغوية المتداولة حاليا"[٢].

ولكي يأخذ الرصيد اللغوي مساره العلمي ينبغي لأي حصيلة لغوية لأطفال المرحلة الأولى من التعليم الابتدائي أن ترتكز بالأساس على المنطوق من المفردات والتراكيب والمفاهيم التي يتعرفون عليها تلقائيا منذ بداية مرحلة التلفظ، لهذا تكتسي الدراسات العلمية المتعلقة بحياة الطفل من حيث السلوك والنمو النفسي والتربوي أهمية خاصة[٣] وتعد مفتاحا لوضع الرصيد اللغوي الأساسي، ومن هذه الوجهة فإن معرفة أنشطة الطفل وما يرغب في التعبير عنه هو ما يعطي إمكانيات هائلة للمربي لكي يستجيب لطموحاته وقدراته والوقوف على قدرة استيعابه وحدودها.

إن الإشكال هنا لا يتعلق بكمية الألفاظ التي نرغب في تلقينها للطفل بقدر ما يتحدد في معرفة كمية الألفاظ التي يتلقاها عفويا وتستجيب لحاجات حياته اليومية، وهذه الكمية هي التي تخضع للتطعيم أثناء سير العملية التعليمية، وهكذا يعد إنجاز الرصيد اللغوي بالتدرج من السنة الأولى من عمر الطفل، إلى غاية التحاقه بالروض والمدرسة عملية تربوية لا غنى عنها في وضع الرصيد اللغوي للمرحلة الأولى والثانية من التعليم الابتدائي، وهذا وحده ما يجعل المبادئ المنهجية للرصيد اللغوي لها معنى والتي من المفروض أن تنطلق من:

- المنطوق والمرئي وواقع الحياة اليومية
- استقراء الكتب المدرسية الأولى والقصص والحكايات والخرافات
- جرد حقول المفاهيم.

---

[١] محمد رشاد الحمزاوي: من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، دار الغرب الإسلامي، ط ٢ بيروت، ص ١٩.

[٢] عبد القادر الفاسي: المعجم العربي، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٥، ص ١٣٧.

[٣] نشير هنا إلى التجربة العربية الوحيدة التي قام بها داود عبده التي لخصها في مقالة مختصرة مختزلة: نمو الطفل اللغوي وعلاقته بنموه الإدراكي، مجلة العلوم الاجتماعية، عدد ٤ السنة السابعة، يناير ١٩٨٠ الكويت، ص ٢٤-٤٠.

إن إنجاز هذه الخطوات يعد مدخلا لتحديد مداخل معاجم الأطفال بصفة خاصة ومداخل المعجم بصفة عامة، لأن من بين الإشكالات التي يطرحها وضع معجم مدرسي للناشئة تتجلى في ضرورة توفير المدونة المعجمية باعتبارها قاعدة المنطلق والمدخل الرئيسي لعملية الإنجاز المعجمي، وهذا ما يفرض تحديد الرصيد اللغوي الذي ينبغي التعامل معه، وهذه الضرورة قادتنا إلى الوقوف على مجمل المشاريع والأعمال المنجزة في مجال الرصيد اللغوي العربي والاستئناس بها، منها ما وقفنا عليه في بعض المصادر، ومنها ما اعتمدنا عليه مباشرة وما قمنا به من جرد للنصوص الأدبية والقصص وتسجيلات لأحاديث الأطفال بالأخص تسجيلات بناتي، وأمام هذه المدونة المعجمية كنا نعمد إلى الانتقاء والتكيّف مع كل مرحلة، لأن المعجم المدرسي الذي يخط لنفسه خطة تعليمية عليه أن يكون مجهريا وانتقائيا ليصل إلى صلب المفردات الأكثر استعمالا لإنجاز بنية صغرى (microstructure) غنية تمكن التلميذ من التعبير والتواصل، وهذه العملية لا بد أن تمر عبر مرحلة التعرف على:

- تواتر المفردة وبحث وظيفتها
- تحديد المفاهيم المشتركة بين اللغات
- محاولة إعطاء مفردة لكل مفهوم وحصر المفاهيم ذات المترادفات
- حصر ما ينبغي تعليمه من ألفاظ حضارية شائعة لا غنى عنها
- العمل على خلق تواصل بين مفردات اللغة في ضوء تطورها
- التمييز بين المصطلحات العلمية والتقنية والحضارية
- حصر الألفاظ الدينية المتداولة

وإذا ما تم تحديد الرصيد اللغوي فإن العمل المعجمي يمكن أن يعرف طريقه في التكوين مع ضرورة تحديد مبادئه الأولية المتمثلة في:

- معرفة دلالة المفردة اللغوية ومضامينها ومعانيها
- معرفة صياغتها وتراكيبها ومدلولاتها
- ترسيخ وتثبيت المعرفة العلمية
- التعرف على الأدوات والآلات الحضارية وأغراضها
- معرفة الحقول اللغوية للمفردات

إلا أن هذه المبادئ قد تتجاوز أهداف المعجم المحددة، عند ما يكون النتاج الذي تراعى فيه هذه الشروط مرآة لتطور الاتصال المكتوب والمنطوق، فهو الذي يعبر عن المستوى الثقافي للأمة، ولا شك أن ارتقاء المعاجم في العصر الذهبي العربي، يشهد على أنها رسّخت وجود اللغة العربية، وسمحت بتكريس مكانتها واستمراريتها، وأوجهها على أكثر من مستوى، وستظل المعاجم شاهدة عصرها لما تحمله من إمكانيات ضخمة لقدرتها على خلق كل الأشكال الاجتماعية للاتصال، وتطور المعاجم في عصرنا على المستوى الدولي، علامة على حس ثقافي متقدم، يرمي إلى إدماج كل الثقافات والعلوم.

ونود أن نؤكد هنا أن المعجم نص تتداخل فيه مختلف النصوص، لينتقل بنا من عالم إلى آخر، فهو يتضمن موارد لشرح اللغة ومفردات الثقافة والحضارة والعلوم ومصطلحاتها، وذلك بهدف امتلاكها والسيطرة عليه، وإذا كان المعجم أداة لغوية للانفتاح على عالم اللغة، فإن هذه اللغة لا يمكن تعلمها إلا بتحديد أوجه مظاهرها، ومجالات اشتغالها المتمثلة في عالم اللغة والمجتمع والمدرسة، وفي شتى المعارف في أوسع تخصصها، ذلك أن اللغة التي يتعلمها المتلقن الناشئ ونريد أن يستوعب طاقاتها ودلالاتها هي:

١ - اللغة المرئية والحسية في أبسط مظاهرها
٢ - لغة المحادثة والحوار في البيت للتعبير عن الحاجيات والرغبات الأولى
٣ - لغة الكتابة والآداب العامة وما تؤديه من وظائف

إذا كانت هذه اللغة هي مجموع الألفاظ التي يحتاجها الطفل في حياته اليومية، وفي مختلف سياقاتها وتعابيرها، فكيف يمكن أن نحدد رصيدها وقيمتها لنقربها إليه في أشكالها الخطية ومجسماتها؟

إن وظيفة البحث اللغوي تفرض هذا التحديد وتتطلب هذا التعيين، وبالأخص عندما يتعلق الأمر بالتصنيف المعجمي في أفق إيجاد الأداة المعجمية لخدمة العملية التعليمية، والهادفة إلى تنمية المعرفة اللغوية التي تتطلبها المواد اللغوية والأدبية والعلمية في الفصل الدراسي.

من هذا المنطلق تتحدد قيمة الإحصاء اللغوي لضبط الرصيد اللغوي في مجالاته وتطوره، ولم يعد بالإمكان إهمال مادة أي مستوى من هذه المستويات، فهي تشكل وحدة معرفية، يخضع لها تكوين شخصية الفرد في عالمنا المعاصر، وهذا ما يجعلنا نؤكد أن المعجم يتضمن بالضرورة خطابات متنوعة ومادته التي تخضع لقواعد معينة هي التي تجعل منه خطابا تربويا، وهذا الخطاب يجد مكانه في تصنيف مختلف الخطابات[٤] وهذا ما يوجه العمل المعجمي ويزيد من أهميته، فهو يتعامل مع اللغة في حيويتها ونشاطها ونتاجها ضمن نطاق التراكيب، كما يتعامل في آن واحد مع مجالات الثقافة والعلوم ليحيلها بواسطة اللغة إلى مادة مفهومة ومتداولة، وبذلك فإن "معاجم الكلمات تدون المعلومات التي تعيد إليها الطبيعة النحوية ونوعيتها وشكلها الخطي والصوتي وانتسابها الابستمولوجي ودلالتها وقيمتها التعبيرية ونمط استعمالها ودرجة تخصصها أو انتمائها إلى مختلف مستويات اللغة وعلائقها داخل المعجم"[٥].

---

[٤] انظر: Jean et Claude Dubois, *Introduction à la lexicologie.* Paris, p. 10.

[٥] B. Quemada: *Les dictionnaires du français moderne, 1539-1863. Étude sur leur histoire, leurs types et leurs méthodes.* Paris, p. 77. Voir aussi: Jean et Claude Dubois, *Introduction à la lexicologie*, p. 7.

وهذا التحديد لطبيعة المعجم لا يلغي توجهات كل معجم وبتحديد الفئة الموجه إليها، فالملتقى يكون الركن الأساس، ولكي تكون المادة الموجهة إليه في مستوى إدراكه لا بد من بحث علمي دقيق لهذا الإدراك وحاجياته التي يتحدد في ضوئها الرصيد اللغوي الخاضع بدوره لعملية السبك والتصنيف والترتيب، وإخضاع كميتها لحجم معين في متناول اليد، الشيء الذي يتحكم في طبيعة المعلومات وحدود اتساعها وكيفية تقدمها، وضمن أنساق بيداغوجية تتكيف مع كل مدخل من مداخل المعجم، واستقلالها لا يلغي وحدتها، فإذا كان تتابع المداخل وبالأخص في الترتيب الألفبائي الذي لا يعتمد الجذور، يوحي بالانفصال، فإنه لا يلغي الوحدة البيداغوجية المتحكمة في كل مداخل المعجم، وذلك بهدف أن يحتل المعجم مكانته بين المؤلفات المدرسية والأدبية والعلمية، فميزته الأساسية هي ارتباطه العميق بكل النصوص، فهو فضاؤها الرحب وصداها، إنه الإحالة والمرجع، وهذه الأهمية التي يكتسيها المعجم تجعل منه بامتياز مؤلفا ذا صبغة نفعية صرفة عملية وتعليمية، قابلا للاستعمال، مما يجعله بالضرورة خاضعا لشروط صارمة ينبغي توفرها في أي معجم يريد أن يحقق الأهداف المعجمية المتوخاة من العملية التعليمية.

المنهجية والإنجاز:

إن الحديث عن الخطوات العملية التي اتبعتها في إنجاز عملي المعجمي، تشكل صلب الموضوع، فهي ترتبط من جهة بالجهاز النظري الذي حددته منذ البداية على الصورة التي أوضحتها سابقا، وترتبط من جهة أخرى بالمادة المتصلة بنموذج القارئ الذي أردت التوجه إليه لكي أضع بين يديه أداة عملية نافعة قابلة للاستعمال، يرتبط بها في كل فترات دراسته، وتكون محور نشاطه العلمي، فهي إنتاج تحدده مجموعة من القواعد المعجمية خاضعة لشروط تعليمية في مجال وصناعة المعاجم المدرسية.

تحديد نموذج الملتقي: إن إطلاق تسمية المعجم المدرسي، قد حدد سلفا إطار الملتقي الذي نود التوجه إليه، إنه تلميذ المرحلة الابتدائية والإعدادية (مرحلة التعليم الأساسي)، إنها مرحلة متشعبة، تختلف مستوياتها وبرامجها، وهذا الاختلاف جعلنا نقوم بتحديد أدق، يراعي القدرة الاستيعابية للطفل/التلميذ. وعلى أساس إيجاد أداة تعليمية مستقلة، وهكذا وضعنا خطة مجموعة معاجم، كل مرحلة دراسية لها معجمها الخاص بها، ويربطها الضبط في التدرج، كل ذلك في إطار وحدة متكاملة، حددناها كما يلي:

١) معجم روض الأطفال
٢) معجم السنة الأولى
٣) معجم السنة الثانية
٤) معجم السنة الثالثة
٥) معجم السنة الرابعة والخامسة

فعلى أي أساس تم هذا التقسيم؟ وما هي المقاييس المعتمدة إذا في هذا الاختيار؟ لقد انطلقنا من قاعدة تربوية تعليمية هي ضرورة إيجاد أداة معجمية نعتبرها مفتاحا لكل مرحلة، لكي يمتلك التلميذ معجمه الخاص، لأن ذلك يولد لديه شعورا بأنه يسبح في عالمه

اللغوي وكما يريد أن يراه للتعرف على الأشياء "إن المعجم هو أجمل هدية يمكن تقديمها لطفل عندما تبدأ في تعلم القراءة"[٦]. بالإضافة إلى كون كل مرحلة لها طبيعتها الخاصة في مجال التلقي والتعلّم، وهذا ما سنبحثه في الفصول التالية.

معجم روض الأطفال:

لم يعد أحد يجادل في الأهمية القصوى التي يحتلها الروض لتهيئ الطفل لعالم القراءة والكتابة والتمرس بالأشياء التي يشاهدها وهو يلهث مشتاقا للتعبير عنها ويفرح، إن مجمل الرموز وهو يحيلها إلى كلمات ملفوظة، مقدمة أولى لفك تلك الرموز عندما تتحول إلى حروف، إنها مرحلة ما قبل القراءة، يفترض أن تأخذ حيزها الطبيعي في عالمه الصغير، إنها المعرفة الأولية التي تحدد مسار تكوينه، وتجعله قادرا على الإدراك وتصور الأشياء، متأكدا من حجمها وشكلها وطبيعتها، وما تؤديه من وظائف رؤية لا حدسا. إن وضع معجم خاص لعالم الطفل وهو في سن الثانية والثالثة، يشعره بامتلاك حقيقة الأشياء المحيطة به، ويمده بأداة مستقبل ثقافته وتكوين شخصيته.

تؤكد كل الدراسات النفسية، أن الطفل يملك قدرة استيعابية لا حد لها، وهي لا تحتاج إلا للمربي الذي ينبغي أن يعرف أساليب استثمارها وتوجيهها وتطويرها، لكي تنمو تلك القدرة بشكل طبيعي وتنفتح على معارف عصره، وهكذا يشكل المعجم المصور أداة من بين أدوات العمل التربوي للطفل في مرحلته الأولى.

إن المهارة التي يتميز بها الطفل، والدقة في ملاحظة الأشياء وحاجته الملحة للتعبير عنها، تجعل من المعجم المصور أداة لتنمية مداركه في التصور والفهم. إنها أعلى مرحلة بامتياز، وهي تنطلق من أساس غض قابل لأن يتطور تحت تأثير الهدف التربوي، إنها مرحلة الانطلاق نحو المعرفة، مرحلة تأسيس التكون، ومن المفروض حصر هذه المعرفة بحصر معالمها ومظاهرها. إن وضع أداة معجمية مصورة لعالم الطفل تتضمن ما يراه ويحتاج إلى التعبير عنه، تفتح أمامه آفاق المعرفة الملموسة وتعمق الوعي لديه بالأشياء، إن إدراك الصورة والتعبير عنها باسمها ليس مجرد عملية آلية، بل هو تفتح وفهم واندماج في عالم المعرفة، وتعميق دلالتها لترتبط فيما بعد بصور أخرى لتركيب مختلف الدلالات، إن وضع صور أمام أعين الأطفال يحدث تأثيرا أساسيا على نمو وتطور إحساساتهم وأذواقهم وأحكامهم.

وإذا كانت ملاحظة الصورة والتعبير عنها شفويا ليست عملية آلية، فإنها فوق هذا وذاك تقوم بإحداث رد الفعل وضبط إطار المرئي وتجسيمه في الإدراك، وتجعل الطفل يدخل في قنوات تصنيف المعرفة وترتيبها في الذهن، والآلية الظاهرة هي اكتساب القدرة على التمييز ما بين الأشياء وتسميتها بأسمائها.

---

٦ Paul Robert, *Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française*, p. 214.

إن عملية ترديد الأصوات وإيقاعاتها وبما تحمله من دلالة تفتح الباب لقراءة جيدة، وتخلق مهارة لحل أشكال الرموز الخطية للكلمات، وتضع أسسا علمية لتعلم اللغة واكتسابها انطلاقا من علم المرئيات والمحسوسات، ويرتبط ذلك بتهيئ الشروط الطبيعية للحوار والمحادثة بدقة متناهية في سياق الأنماط التعبيرية المتعارف عليها، كما يضمن التفتح على قراءة النصوص والكتب مستقبلا بفهم وإدراك ودون تعثر.

لست بحاجة هنا للتذكير بضعف المستوى التعليمي في كل الأقطار العربية، وما نسمعه من شكاوي المربين حول صعوبة اللغة العربية وقواعدها وغموض النصوص الأدبية المقررة[٧] شكاو لا علاقة لها في الواقع بصعوبة القواعد والنصوص، إنها ترتبط في جزئها الأكبر بالأدوات التعليمية والكتب المدرسية وبالمناهج السائدة، وما لم تُراجع هذه الأدوات، وهذه المناهج وفي ضوء ما يعرفه العصر من تقدم علمي وحضاري، فإن العملية التعليمية ستظل في تأخر ولن تعرف التقدم المنشود.

ومن بين هذه الأدوات التعليمية والعملية المعجم المدرسي، الذي لا تنحصر مهمته فقط في حل مشاكل التباس الكلمات الصعبة وغموضها، بل تتعداه لترتبط بفتح آفاق الثقافة العامة، مفتاح العصر، وارتياد فضاء المعرفة، باعتبار المعجم مؤلفا متحركا، فاعلا ومؤثرا ونافعا، ومرتبطا باللغة الأم، اللغة الوطنية التي تحمي الطفل من الالتجاء في بداية تكوينه إلى لغات أجنبية ينشدها للتعبير بها عما لم يستطع التعبير عنه بلغته الوطنية، وهذه هي الآفة التي يساعد في معالجتها في مهدها المعجم المصور، وعندما أشرت إلى أن المعجم المدرسي هو أداة للثقافة العامة وليس لمجرد التعلم والمعرفة المجردة الآلية، كان ذلك انطلاقا من مفهوم نظري وبعد إيديولوجي واقتناع بضرورة ربط الطفل منذ البداية بلغته الوطنية.

مقاييس وضع المعجم المصور للروض:

لقد راعيت في وضع المعجم المصور للطفل وهو في مرحلته الأولى بالروض مجمل الأرصدة اللغوية التي أنجزت كما أشرنا إلى ذلك في البداية، وعمل المعجمي لا يتجاوز إطار ما هو متداول ومستعمل، ومهمته هي الترتيب والتصنيف والملاحظة، وهو بعيد كل البعد عن وضع كلمات جديدة أو حتى اقتراح كلمات مبتكرة، فهذه مهمة المجامع اللغوية، إلا أنه لا يتردد في إدخال المتداول وما أصبح متعارفا عليه شريطة أن يكون داخلا في صلب اللغة التي يراقب تطورها وتطور معانيها، والتعامل مع الرصيد اللغوي المختار بمرونة وفي حدود ارتباطه بحياة الطفل اليومية وبعالمه الصغير من سن الثانية ليصاحبه إلى غاية سن الخامسة أو السادسة، وقد توخينا فيه الضبط وسهولة اللفظ، ولم نخرج عن

---

[٧] انظر: د. منى حبيب، د. قاسم شعبان: تدريس اللغة العربية في البلاد العربية، ص ١٠.

محيطه، وقسمناه حسب المواضيع، ليظل ملتصقا بها[٨]، يسبح فيها حسب فضوله وحاجاته، وقد حصرناها فيما يلي:

١) الإنسان.

٢) أعضاء جسم الإنسان.

٣) الملابس: لاحظنا أن الملابس أكثر الأشياء التي يرتبط بها الطفل ارتباطا ملموسا بحكم ارتدائهااليومي، ويحتاج إلى تغييرها في جل الأوقات، وتسميتها ضرورة ملحة، ليس فقط للطفل بل حتى لوالديه في آن واحد[٩].

٤) حاولنا أن نحصر ونصنف أدوات اللعب الأساسية والأدوات المشتركة بين الأطفال سواء المتداولة عادة في البيت أو في حدائق رياض الأطفال.

٥) الأدوات الأساسية: الأدوات المدرسية والأدوات التي يحتاج إليها الطفل، والأدوات التي يستعملها الأب في مجال الصناعة الاحتياطية بالبيت، كأدوات البناء، أو تلك التي تستعملها الأم كأدوات الخياطة بالإضافة إلى ملابس الأب والأم.

٦) أدوات التزحلق.

٧) بنايات وأدوات التأثيث المنزلي/نظافة/مطبخ أكل/ضوء/خياطة.

٨) مختلف الأطعمة.

٩) الآلات الالكترونية والإعلامية.

١٠) أطعمة وخضر وفواكه.

١١) طبيعة وأزهار ونباتات وأشجار.

١٢) آلات موسيقية.

١٣) أنواع الحيوانات من حشرات وطيور وزواحف وضوار وأسماك وحيوانات برية وبحرية.

١٤) وسائل المواصلات.

١٥) آلات الفلاحة والبناء.

لم يتم حصر هذه المواضيع اعتباطا، بل كانت نتيجة ملاحظات يومية ومتابعات مستمرة للأطفال في الأماكن التي يترددون عليها كما وقعت الاستعانة بأبحاث ميدانية منشورة وغير منشورة، وأول إنجاز قمنا به هو جمع عينات من الكتب والمعاجم المصورة أعدنا ترتيبها حسب المواضيع أعلاه، إلى أن وقع اختيارنا على أزيد من خمسمائة كلمة،

---

[٨] انظر في هذا الصدد كنموذج: *L'imagier du père Castor.* Paris: Flammarion, 1977.

[٩] لاحظنا معاينة أن الآباء يجهلون بنسبة ٦٠٪ أسماء أبسط ملابس أبنائهم، وحتى المتعلمون منهم، ويطلقون عليها أسماء غريبة لإنقاذ الموقف، وفي أغلب الحالات يلتجئون إلى لغات أجنبية للتعبير عنها، لأن تلك الأسماء متداولة بأبسط معانيها في تلك اللغات، ويكفي هذا النموذج لنتصور المآل الذي آلت إليه اللغة العربية، وبذلك نأمل أن يؤدي المعجم المصور خدمة أولية للآباء لإعادة الروح للغتنا، وهذه الملاحظة لا تقتصر على الملابس بل تتعداها الى مجمل المواضيع التي اخترناها لهذا المعجم.

اعتبرناها صالحة ومشتركة لتكون محل التداول والتحصيل، واعتمدنا في ذلك على المجسمات والمحسوسات لأن جانب الإحصاء وكما تطبقه الدراسات المونوغرافية خارج عن نطاق البحث المعجمي في هذه المرحلة.

الرصيد اللغوي: المعجم الصغير

إن هذا المعجم الذي أنجزناه في ضوء مختلف الأرصدة اللغوية المقترحة في العالم العربي، قد راعينا فيه التناسب والهدف التربوي في أفق ترسيخ ارتباط الطفل باللغة العربية منذ المرحلة الأولى، كما سعينا إلى وضع أكبر عدد من المفردات التي يقع عليها بصره في محيطه، وهو ما بين الثانية وأواخر سنه السادسة، مهتدين بوعي كامل أننا نرمي إلى توفير أداة لغوية مصورة، توفر المتعة والألفة والاحتكاك لغويا بالأدوات التي تحيط به ويصطدم بها نظره منذ البداية.

لقد استفدت من تجربتي الشخصية - في وضع هذا المعجم أولا كمعلم سابق في المدارس الابتدائية وثانيا من تجربتي مع ابنتي سلوى إذ بدأت في هذا المشروع وابنتي سلوى لم يتجاوز عمرها ثلاث سنوات. وكنت أشعر بارتياح شديد وأنا ألاحظ أنها تكتشف معي عالم الأشياء كما تكتشف عالم الأسماء، وكان مجرد ملاحظة الصورة ومحاولة النطق بمنطوقها اللفظي يجعل متعتها لا حد لها.

لم تكن تسعى إلى أن تحفظ مسميات صور المعجم، بل كانت تجتهد أن تتوصل إلى الربط بين دلالة ما تلاحظه وبين الوجه الذي يستعمل فيه، وعلى سبيل المثال عندما أقدم لها صورة "حسائية" ويصعب معها أن تردد مدلولها لفظا كانت تلجأ إلى الشرح، وتقول إنها الإناء الذي نضع فيه الحريرة لنصبّه في القدح، ومع التكرار تراجع الشرح ليحل مكانه المصطلح الملائم.

في الأشهر الأولى من السنة الثالثة كان عدد الكلمات التي تعرفت عليها سلوى من مجموع صور المعجم في حدود ٢٧٪ باللغة الفرنسية و١٨٪ باللغة العربية، وفي الأشهر الستة الثانية ارتفع مجموع ما تعرفه بدقة إلى ٥٨٪ باللغة الفرنسية و٤٠٪ باللغة العربية، وفي الأسبوع الأول بالتحديد من السنة الرابعة ارتفعت معرفتها إلى ٨٠٪ باللغة الفرنسية و ٦٠٪ باللغة العربية[١٠].

إن كلمة "معجم" (dictionnaire) أصبحت ترددها بشكل عادي واندمجت في سياقة كلية، ولم نعد نتوقف عند الصور وكلماتها، بل كنا نشكل منها جملا وحكايات، وعندما قمت بإحصاء جمل الكلمات المستخرجة من أشرطة التسجيل لاحظت أنها تجاوزت ١٥٠٠ كلمة. وفي الأشهر الأولى من بداية سنتها الخامسة ارتفع محصولها بشكل مدهش بحيث

---

[١٠] نشير هنا أن سلوى مزدوجة اللغة منذ نشأتها نتيجة وضعها العائلي.

تجاوزت الألفين وإذا جمعنا مجموع مفردات اللغتين الفرنسية والعربية، نجدها تجاوزت الأربعة آلاف كلمة في ذلك الأسماء والأفعال والظروف والروابط والأعداد.

إن التعود على المعجم بالبيت هو الرهان الذي نجحنا فيه من خلال التجربة والممارسة والنتائج المحصّل عليها، ولم أكن أنظر إلى هذه التجربة إلا من جانبها المعجمي. إن إخضاع المحصول اللغوي للإحصاء يجعل المرء يصاب باندهاش، وهو يلاحظ نتائج النسب المئوية التي توصل إليها أكثر من باحث في مجال المونوغرافية وعلى أكثر من مستوى.

إن مجموع الرصيد اللغوي للطفل ابتداء من السنة الثانية وإلى غاية السن السادسة يشكل النواة المعجمية الأولى ويظل رصيدا لغويا عمليا يرتبط به ارتباطا وثيقا، ليست الغاية منه أن نعلمه إياه، فهو على معرفة نسبية به حسب الأعمار. لقد لاحظنا في نهاية السنة الثانية أن الطفل يبدأ بالتلفظ بعدد من الكلمات، وهو في أكثر الحالات يتمكن من معرفتها معرفة تامة مع اختلاف طفيف في النطق حيث يبدأ في التمييز بين الأشياء والكائنات، وهذه مرحلة دقيقة، فيها ينمي الطفل مفرداته ويسجلها، ولو أنه ينطقها كما اتفق ولو بتحريف، ولقد لاحظ أكثر من باحث أن الطفل البالغ من العمر سنة وستة أشهر يملك حوالي عشرين كلمة، ولكن بعد هذا الانطلاق البطيء تكثر مفرداته فجأة وبطريقة سريعة، وعندما يبلغ السنتين من عمره يكون رصيده تجاوز ثلاثمائة كلمة وفي السن الثالثة يجاوز الألف كلمة، وحسب تجربة كريكوار Grégoire[١١] ففي الشهور الخمسة الأخيرة من السنة الثانية وجد محصول الطفل في هذه المرحلة لا يتجاوز أكثر من مائة واثنين وثلاثين كلمة يتعلمها على الطبيعة وبطريقة عفوية، وقد صنف مجموع الكلمات على الشكل التالي:

أسماء الأشخاص	١٣
كلمات لها معنى محسوس	٥٦
أسماء الحيوانات	٧
أسماء أعضاء الجسم	٢
كلمات لها معنى مجرد	٦
الأعداد	٣
صفات	٥
ضمائر	٢
أفعال	١٦
أدوات	٦
ظروف	٧
أدوات النفي	٣

---

[١١] انظر: Antoine Grégoire, *L'apprentissage du langage*, tome 2, 369-375.

٥ ---

١٣٢

وحسب تجربتنا الخاصة فلقد توصلنا بدورنا إلى نتائج مختلفة عن التجربتين، إذ اكتشفنا أن المحصول اللغوي لسلوى لنفس المرحلة تحدد كما يلي:

	الفرنسية	العربية
أسماء الأشخاص	٣٠	٣٠
كلمات لها معنى محسوس	٧٠	٢٥
أسماء الحيوانات	٢٠	٨
أسماء أعضاء الجسم	١٢	٧
كلمات لها معنى مجرد	٨	٤
الأعداد	٢٠	١٠
صفات	٨	٤
ضمائر	٤	٢
ظروف	٧	٣
أدوات النفي	٣	١
	١٨٢	٩٤

وتحول محصولها اللغوي تحولا جذريا في سنتها الرابعة كما أشرت إلى ذلك سابقا. ونحن لن نقف عند الفارق العددي ما بين التجربتين إذ من المفروض في المعجمي أن ينظر إليها نظرة شمولية.

لقد ركزنا بشكل خاص على المحصول اللغوي للسنة الثانية، لأنها المرحلة التي يخرج فيها الطفل حسب مفهوم "بياجي" من الطور الأخير للمرحلة الحسية المرئية، حيث يترسّخ تكوين الفكر المفهومي[١٢] ويتعلم فيها كيف يتكلم وينشئ رموزا، ويشرع في التمييز بين المتداول "الكلمات والصور التي تمثل الوقائع والأشياء" والمدلولات "الوقائع الغائبة عن الإدراك التي تحيل عليها الكلمات والصور".

ونحن إذ نعمل على ترسيخ الأشياء من خلال معجم الصور نعتبره المعبر للتعبير عن المدلولات واستحضار "الوقائع الغائبة عن الإدراك الحسي والتي تحيل عليها الكلمات والصور"، من المؤكد أن رمز كل كلمة له وظيفة يؤديها في عدة مستويات لمعرفته بها، وإدراكها وتمثلها يجعله يتجاوز (معطياتها الفيزيائية المرئية) إلى ما هو أبعد في عالمه

---

[١٢] انظر: Jean Piaget, *Mes idées*. Paris, 1977, p. 123-142. نموذج النمو حسب بياجي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثاني يوليوز ١٩٨٦، المغرب، ملف جان بياجي، ص ٨٧.

ومحيطه الصغير المباشر، "إن الوظيفة الرمزية تتيح له أن يطبق في الحاضر تجربته الماضية" (نفس المرجع السابق).

إن مرحلة الصراع الحضاري في مجال اللغة فرضت على أن يتم اختياري لكلمات المعجم/النواة في ضوء عدة تجارب (تجارب خضع لها أطفال يتعلمون اللغة الفرنسية فقط) و(أطفال يتعلمون العربية) و(أطفال مزدوجو اللغة)، ولقد اكتشفت أن هناك طاقة استيعابية وإدراكية متساوية لديهم تخضع لأسلوب الأداة ومهارتها في الإيصال والتعليم والتربية، ومن هذه الوجهة جاء اختياري للمعجم/النواة خاضعا لما هو محسوس وملموس ومتداول، وما تدعو إليه الحاجة للاستعمال، ولا يقصد به مجرد المحاكاة بل الخيال وتطويعه انطلاقا من خزان أولي ذلك "أن المحاكاة تصبح أقل بروزا وتستبطن أكثر فأكثر. ويحيا الطفل خلال هذا الطور وبصورة متناهية على التطورات الذهنية للعالم الخارجي وعلى أفعاله هو بالذات" (نفس المرجع السابق)، من هذه المنطلقات تصبح المعجم/النواة أداة معرفية للارتباق بالعالم، ولا نهدف من ورائه إلى حشد ذهنه بمجموع الكلمات، حيث تمت مراعاة الجانب المنفعي والمتعة (الألعاب والآلات الموسيقية) والجانب المعرفي (الحيوانات والنباتات والآلات الألكترونية)، وجانب الاستعمال اليومي (الملابس والأكل وأدوات المطبخ والآلات العامة).

وكل مجموع لغوي له وظائف خاصة في حيز معين يستجيب لرغبات آنية، ويمكن القول إن مجرد استحضاره قد يساعد على استثماره في مجال ما، وهو ما يفسح المجال لمرحلة الفباجرائية أي الطور الحدسي حسب تعبير بياجي، "إنها المرحلة التي تهيئ الطفل لطور العمليات المشخصة" (نفس المرجع السابق) وتجعله أكثر تهيئا لاستحضار واستقبال في آن كل الصور الذهنية وتصبح لديه مطواعة مرنة وسهلة، بل تجعله يطورها ويخضعها في آليته للمفاهيم التي يرغب في تكوينها وإنشائها والتمييز بين دلالاتها.

وليست الصور المتراكمة في المعجم/النواة مجرد أحجام وأشكال، إنها دلالات تنمو مع حس الطفل، وهي خزان متنقل، وعندما ترافقه في كل أطواره فإنها تؤهله وبدون أدنى شك ليندمج في محيطه الصغير وفي محيط الكبار في آن واحد.

لا يقف التعرف على المعجم واستعماله والبحث فيه عند الإبانة والإيضاح للكلمات الصعبة والغامضة، أو في فك رموزها، إنه كتاب للمتعة والفرجة والتأمل كما أنه كتاب للتكوين المدرسي والعلمي وللمزيد من المعرفة وترسيخ المعلومات، وهذا ما يجعل قراءة المعجم متعة للثقافة تتجاوز البحث عن كلمة من الكلمات مع ما لحاجتها وضرورتها من قيمة، كما أنه سبيل من السبل لمعرفة المعجم في حد ذاته ومعرفة آلياته ونسقه معرفة دقيقة للارتباط به، وطبعا ليس من المطلوب تحصيل كل ثروته اللفظية ولكن التعامل معه

كقارئ لا كمستعمل[١٣] هو ما يعمق أواصر الارتباط، وليصبح أنيسا ورفيقا يصعب الاستغناء عنه، إنه المرجع الذي يجعلك ترتاح عندما تتعرف على دقة معنى من المعاني، كما يعطيك قدرة الاستمرار في التحصيل وعدم التوقف، إن الرجوع للمعجم هو رجوع لذات اللغة ورحابها الواسع وفي ذات الوقت رجوع للذات، وليس فقط رجوع لحل التباس أو غموض طارئ.

إن هذه المنطلقات هي التي حددت قاعدة المعجم/النواة، وفي ضوئها حددنا إطار ومسار المعاجم المدرسية للتعليم الأساسي، لتشكل مرجعا للثقافة العامة والإلمام بمختلف التراكيب اللغوية التي تحيل على مختلف العلوم، للنهوض باللغة العربية.

إن المحاولة التي نقدمها اليوم ما هي إلا حث علمي ورغبة في التحريض العلمي لكل الباحثين للاهتمام بالدراسات المعجمية والتفرغ للإنتاج المعجمي لكي لا نحصر التلاميذ في إطار معجم وحيد وفريد من نوعه، فهذا المعجم لا وجود له، إن تنوع السوق المعجمية بمختلف المعاجم المتنوعة مادة وشكلا هو الطريق السليم لتنوع المعرفة وتزويد التلاميذ والطلاب بأدوات تعليمية متنوعة وعملية.

إن تجربة الغرب حاليا خير دليل على ما أصبحت تكتسيه المعاجم من أهمية في عصرنا في المجال التعليمي، وهذه الدعوة تفرض إعادة النظر في برامجنا التعليمية كما تلح على ضرورة إدخال الدرس المعجمي منذ المرحلة الابتدائية كما هو الشأن في المدارس الأوربية.

إن معرفة اللغة وإتقانها والرفع من مستواها رهين بإدخال الأداة المعجمية لمدارس التعليم الأساسي، لأهمية مرجعيتها ومعرفيتها، وهي لا تقف عند حدود الرصيد اللغوي، فالمعجم ليس بوعاء لتدوين الكلمات وترتيبها، لأن ميزته الأساسية تتمثل في إبراز مجموع العلائق التي تربط الكلمات مورفولوجيا أو دلاليا (نفس المرجع السابق، ص ١٠٢) بالإضافة إلى الوقوف على مختلف الدلالات التي تحملها الكلمة الواحدة وحقول اشتغالها، ولا تنحصر مهمة المعجم فقط في الترتيب الألفبائي أو الأبجدي أو ترتيب الكلمة حسب جذورها واشتقاقها إنها تتجاوز ذلك إلى معرفة العلاقات التي تكشف عنها الكلمات وما تؤديه من معان وما تتضمنه في ذاتها وفيما بينها على مستوى الرمز المحدد le signe nommant في آن واحد على مستوى الشيء المحدد la chose nommée (نفس المرجع السابق، ص ١٠٢).

إن وضع معاجم بين أيدي الجيل الناشئ ومنذ مرحلة الروض عملية حضارية وثقافية، إذ تخضع العملية التعليمية لمفاهيم وتصورات لا غنى عنها، وتكيّف الأدوات التعليمية، فإذا كان التعلم يخضع لمستوى تطور المعارف، فإن المعاجم هي التي تشكل المرآة

---

١٣ Obadia, R. Dascotte, M. Glaligny, C. Collignono, *Le lexique et les dictionnaires, problèmes de structure*. Paris: Hachette, p. 101.

الحقيقية لها، وهذا ما يجعلها بامتياز القاعدة والركيزة الأساسية لكل العلوم. هذا بالإضافة إلى المكانة التي تحتلها اللغة الوطنية، فإن الإبداع فيها هو ما يجعل الانتماء لها له معنى، ويشعر المرء بوجوده وشخصيته، إن اللغة في وجوده ووجوده في لغته، وهذا الشعور هو الذي يقيم حدود اللغات التي تنفتح عليها فيما بعد، حيث لا يملك أمامها تجاوز لغة الأم. إن الانتماء لها الموازي للتكون فيها هو ما يؤهله ليبحث عن تطورها وتطويعها والالتصاق بها، وهذا الهدف هو ما يفرض بالضرورة حبك الأداة التعليمية ودراستها وخضوعها لمقاييس بيداغوجية، إتقان التصرف فيها وإعادة النظر فيها كلما دعت الحاجة إلى ذلك من خلال الممارسة والتطبيق والتجريب.

هذه الرؤية هي التي قادت خطواتي وأنا أحدد الرصيد اللغوي لمرحلة من أدق مراحل النمو في حياة الطفل، ولكي أجعل منه المنطلق الأساسي للمعاجم المدرسية. ومن المفروض أن يتطور في جو ثقافي لتضمن فعاليته، فالثقافة عامل فاعل لاستمرارية نوعيته في التحصيل والتكوين، وما نود التأكيد عليه هو أن الوعي بالرصيد اللغوي ليس غاية في حد ذاته، ولكنه مجرد أداة تعليمية تؤسس لأرضية معرفية.

لقد وقفنا في تحديد دور "النواة"[١٤] المعجمية على بداية السن الثانية إلى غاية السن السادسة، باعتبارها مرحلة أكثر نضجا والتي يتمكن فيها الطفل من النطق السليم نسبيا والتمييز بين الأشياء، ولم نهتم بنظرية اكتساب اللغة والآراء المتضاربة حولها، لا لأنها خارجة عن نطاق هذه الدراسة، بل لأن ما يهمنا هو أسلوب وكيفية تحصيل المادة اللغوية المكتسبة فطريا، فإذا كان تشومسكي يقول ما معناه "إن من الخطأ اعتبار أن الطفل لا يمكن أن يتعلم اللغة إلا بفضل غاية كبيرة تخضع لدقة متناهية يمارسها الكبار والتي تكون دائما صارمة وحادة، وبالأخص في الأوساط العائلية الجامعية، وان طفل عائلة مهاجرة يمكن أن يتعلم لغة ثانية في الشارع باللقاء مع أطفال آخرين بسرعة مدهشة وهو يتعلمها بدون خطأ، بالإضافة إلى أن الطفل يمكن أن يتعلم جزءا كبيرا من مفرداته مع تركيب جمل بالنظر إلى التلفزيون يوميا، وبالقراءة والاستماع إلى الكبار، وحتى بالنسبة للطفل الذي لم يكن قد اكتسب بعد رصيدا أدنى، يمكن بعفوية تامة أن يقلد بنضج مفردات جديدة، وله قدرة على إدخالها إلى رصيده بدون تدخل الكبار، فإن هذا ليس معناه إبعاد عملية التدخل في اكتساب اللغة" وحتى عندما يؤكد تشومسكي "أن اللغات الإنسانية ليست رصيدا أو مدونة"[١٥] وبالأخص عندما يتعلق الأمر بضرورة تأسيس قاعدة سليمة للغة الأم في ظل صراع دولي يحكمه الاكتساح اللغوي للغات مهيمنة. وإذا كنا نتفق حول مضمون نظرية تشومسكي مع العلم أن البحث في اكتساب اللغة وصيرورتها وتطورها ما زال حديث العهد، وميدانه يعج بمختلف النظريات والآراء والأبحاث الجديدة، فإن هذا لا يمنعنا من

---

[١٤] نعني بمصطلح النواة المدونة اللغوية الأولى التي تشكل الرصيد اللغوي الأول للطفل.

[١٥] F. Marchaud, *L'acquisition du langage*. 1975, p. 17.

القول أن ما ينبغي أن يُفهم من الرصيد اللغوي (النواة المعجمية) أنه ليس موضوعا للحفظ أو التخزين أو التدخل في أطوار عملية الاكتساب اللغوي، إذ أن الطفل بعفويته على وعي بها، يعرفها أو هو على الأقل يعرف وظائفها حتى عندما تغيب عليه مسمياتها، إنها للتذكير، أداة معرفية للتسلية والمتعة والاستئناس، ومجال هائل لنشاط ضروري في حياة الطفل، إنها إعادة للتذكير بما اكتسبه بالفطرة حديثا، وفي نفس الوقت تحصيل معرفي لما ينبغي أن يعرفه. ومن المفروض أن يكون واضحا في الأذهان أن مجموع الكلمات التي تشكل النواة المعجمية تعتبر مجالا خصبا للإحالة وتعدد الدلالات، إن استحضارها يحيله على شبكة لا حصر لها من الدلالات والرموز، وهي بالتأكيد تفوق محصوله المعجمي، مع العلم أننا استبعدنا الأفعال من النواة المعجمية، سواء منها التجريدية أو المحسوسة، وهذا ما يجعلنا نعتقد أنها تشكل نشاطا ذهنيا عبر الصورة، كما أن تحديد النواة المعجمية يتجاوز الطفل، وتتحول إلى أداة علمية لفائدة المربي، إن معرفة تطور النظام اللساني وأنماطه وخصوصيته يساعده على توضيح أكثر القضايا غموضا، وتذليل الصعوبات التي يمكن أن تعترضه، وهو يتعامل مع مجموع الأطفال الذين هم في مرحلة اكتساب اللغة وتحصيلها.

إذا كانت التجارب الميدانية التي أجراها اللغويون منذ بداية هذا القرن على أطفالهم لمعرفة رصيدهم اللغوي خلال سنواتهم الأولى قد سمحت بتكوين معرفة أولية لأطوار الاكتساب اللغوي ونمط خصوصية النظام اللساني فإنها الآن "لم تعد تقتصر على أطفال السنوات الأربع، بل اتجهت إلى مختلف السنوات المدرسيَة في التعليم الابتدائي" (نفس المرجع السابق، ص ٢٠).

وقد سمح هذا التوجه بإعادة النظر في التأليف المعجمي والاهتمام بمعاجم الأطفال، إذ أن تسجيل النواة المعجمية وحصرها وترتيبها وإعادة تقديمها للطفل في صورة معجمية وهو يعيد قراءتها ليحدث معها ألفة، تجعله يلتصق بها التصاقا وتشعره بأنه يملك عالمه اللغوي بين يديه.

إن التركيب المعجمي المصور للكلمات التي يستعملها الطفل في محيطه ويتداولها هو مفتاح لضبط الآلية اللغوية، وسلاح معرفي، بالإضافة إلى أنه يندرج في سياق عملية التأسيس المعجمي التي تنحو منحى تشكيل أدوات تعليمية في مجال التطبيق البيداغوجي وفي ضوء مبادئ لسانية.

إن النواة المعجمية هي التي تسمح بإعادة النظر في الكتب المدرسية والمناهج الدراسية كما أنها توفر مادة تربوية لتطوير البحث العلمي في مجال العملية التعليمية.

إن البحث في الرصيد اللغوي لا ينحصر في إطار الدراسات اللسانية الصرفة، فهو يتجاوزها إلى مجال الإتنوغرافية وإلى علم النفس وعلم الاجتماع. إنه باختصار يمس مجمل العلوم الإنسانية المعاصرة بهدف تأسيس أساليب بيداغوجية قائمة على الضبط والمعرفة.

إن الأخذ بمعطيات البحث في نظريات الاكتساب اللغوي عند الطفل يفتح آفاقا جديدة في مجال البحث العلمي، ويقدم دليلا عمليا لضبط القدرة على الاكتساب وتطويع الذاكرة، فإذا كان أي طفل عادي له القدرة على اكتساب وفي مدة محددة من نموه كمية هائلة من الألفاظ، أو على الأقل الألفاظ التي هو بحاجة إليها في تعامله مع محيطه واتصاله اليومي فإن تحديد هذه القدرة واكتشاف مظاهرها من خلال أداة معجمية عملية، ستساعد بالضرورة على تطوير إدراكه وقدراته المعرفية.

أكدت البحوث والتجارب الميدانية أن تشكيلات البنية الذهنية تبدأ مع نهاية الفترة الحسية المرئية كما يبدأ معها التحديد التدرجي لمفهوم الأشياء، وتشرع أفعال الذات في التمايز والتنوع والتنسيق، وما يتولد عن ذلك من بناء مزدوج للذات من جهة، وبناء الموضوعات الدائمة من جهة أخرى[١٦]، إذ أن وعي الطفل للذات ووعيه للعالم من الموضوعات المستقلة عنه يتولد عنه تنسيق تدريجي في آن واحد. حيث يتم الإعداد "للعمليات الملموسة" إنها مرحلة تطور الوظيفة السيميوتيكية والتي تستمر من السنة الثانية الى السابعة/الثامنة والتي تتميز فيها الأشياء الرمزية بأهمية خاصة، إنها مرحلة تأسيس التصور والإدراك بالعالم الخارجي ورموزه، والقدرة على استحضار الأشياء الغائبة وهو ما يسمح "بنمو مرحلة جديدة من مراحل الذكاء عن طريق التصور والتفكير" (نفس المرجع السابق، ص ٥٢). وهذا ما يفرض عناية خاصة بهذا النمو ورعايته لحفظ صيرورة تطوره الطبيعي. فإذا كنا نقترح معجما للطفل على أسس علمية وبيداغوجية قائمة على التجربة كما هو الشأن في المجتمعات الحضارية لترسيخ وعيه بذاته وبالعالم ومن خلال لغته الوطنية فإننا ندفعه كما يقول بياجي "أن يعيد بناء كل ما اكتسبه عن طريق أفعاله على شكل مصطلحات تصويرية" (نفس المرجع السابق) وبديهي أننا لا نترك الأمور للصدفة ونسعى إلى تغذيتها والتحكم فيها حتى تستثمر معطيات الفترة الحسية/المرئية ومكتسباتها لإعادة البناء، "أي ما تم إنجازه على المستوى الحسي/المرئي يجب أن يعاد بناؤه" (نفس المرجع السابق) وذلك لتنمية قدرة الطفل على تصور الأشياء، وحسب رأي بياجي فإنه لا يكفي إعادة البناء، لأنه يتطلب التكيف مع حقول أعم وأوسع، من هنا تبدو أهمية وقيمة كل الأنشطة التربوية القائمة على اللعب وموضوعاتها مما يفرض استثمارها وحبك تصنيفها، إن اختيار الصورة كمادة لموضوع الكلام والوعي بوظيفتها وبعالمها يعتبر تنمية للفكر في الرموز والعلامات.

وإذا كانت اللغة لا تخلق التفكير الذكي حسب مقولة بياجي وليست إلا مظهرا لما يسميه بـ"الوظيفية الرمزية العامة" وعلى أساس "أنها نسق من العلامات"[١٧] فإننا لا

---

[١٦] بياجي يتكلم "أطوار التطور المعرفي" مجلة بيت الحكمة، ص ٤٩.

[١٧] نظريات بياجي في النمو الذهني، مجلة بيت الحكمة، ص ١٧.

يمكن أن نلغي الوعي بها لأن التفكير فيها يعد مظهرا من مظاهر الانتماء الاجتماعي، وتسير في موازاة مع تطور الشخصية في محيطها، كما أنها ترسّخ التصور بالأنا.

وإذا كان من المسلم به أن نظام المراحل خاضع للاكتساب الفطري إلا أنه يظل متأثرا بالمحيط والثقافة وأنشطتها، كما أن سرعة النمو ترتبط بدورها بالأجواء والمفاهيم السائدة إذ أن التعليم حسب مقولة بياجي ليس مرادفا للتطور، ويميل إلى معادلة التعلم باكتساب المعرفة عن طريق منبع خارجي ما (نفس المرجع السابق، ص ٢٢).

إن الأداة المعرفية المعجمية التي نقدمها للطفل حسب مستوى النمو الذي بلغه هي لإقامة توازن فعلي وثقافي مع محيطه ولغته، وليست إلا مجالا من المجالات الواسعة التي يملك فيه، وفي قطاعات أنشطته العامة، إمكانيات لا يستهان بها، ليس فقط للتكيف مع الواقع بل لتمثله. وهذه الأداة تؤسس بالضرورة هذا الطموح وتسعى إلى خلق التواصل مع العالم انطلاقا من عالمه الصغير، إن المعجم المصور يقدم رموزا وعلامات ويحقق عبرها فائدة مزدوجة، لارتباطها بذاته من جهة، وموضوعات العالم الخارجي من جهة أخرى، كما أنه يكشف عن الرغبة الملحة لدى الطفل ليعبر من خلاله بالألفاظ والتي أصبح يملك قدرة التلفظ بها، من هنا تتحقق الازدواجية: الرغبة الذاتية والرغبة المعرفية عبر اللغة، إنه الشعور بالأنا الذي يطفح من أجل أن يحقق رغباته ومعارفه، ويظل معجم الطفل بهذا المعنى أداة من أدوات اللعب الأولى التي نلح عليها لتطوير الوظيفة السيميوتيكية المتمثلة في تقديم المعالم، والتي تساعد على بناء الشخصية المتزنة، وتطوير قدرات الاستيعاب والذكاء.

وإذا كنا نعطي أهمية لمعجم الطفل فإننا نضعه ضمن وسائل اللعب الأخرى التي يهيئها المحيط له وبالأخص اللعب اللغوية التي عرفت تطورا مدهشا في السنوات الأخيرة بالمدارس الأوربية[١٨] وقد أصبح المعجم يشكل أحد محاورها الأساسية في مجال التعلم اللغوي وإعمال الفكر بواسطة "اللعب على الكلمات واللعب بالكلمات"[١٩].

إن ما نهدف إليه ليس فقط نقل تجارب الآخرين، ناهيك إذا كانت هذه التجارب قد أعطت نتائج تلتقي مع ما نطمح إليه لجعل اللغة العربية لغة الحوار والكتابة ولغة العلم، بل إعطاء الأولوية لمكانة الطفل ودوره لإدراجه في مراحل تطوره الأولى في بنية ثقافية شاملة تعتمد لغة الأم كقاعدة للتعلم وعلى أساس معرفي، وخلق الرغبة منذ البداية ليساير التطور الطبيعي. ويتمكن من استثمار قدراته الهائلة في كل مرحلة من مراحل تطوره والتي تحتاج إلى الضبط والعناية، وفوق هذا وذاك فإن تطور تصورات الطفل هي بحاجة ملحة لأداة معجمية أولى والتي سنؤسس في ضوئها مجالا رحبا للعمل المعجمي.

---

[١٨] J. M. Caré et R. Debyser, *Jeu, langage et créativité.* Paris: Hachette, 1983, p. 3. فقد اعتمدنا هذا الكتاب أساسا لتطوير وجهة نظرنا في مجال العلاقة بين اللغة واللعب.

[١٩] نفس المرجع السابق، ص ٦، انظر:

D. W. Winnicott, *Jeu et réalité, l'espace potentiel.* Paris: Gallimard, 1971.

إن الأهداف المذكورة ليست منفصلة عن باقي التجارب التي مارسها لغويون ومربون والتي حاولنا في ضوئها تكييفها وتطويرها وإغنائها، وعندما اعتبرنا المعجم المصور أداة من أدوات اللعب اللغوية، وجدنا أنفسنا في محيط شاسع يفرض بالضرورة تأسيس مجال صناعي.

لقد عرفت نظرية اللعب في المجال التعليمي اتساعا وانتشارا وتطبيقا، إلا أن أغلب هذه الاتجاهات لم تول اهتماما إلى العلائق الموجودة ما بين اللعب واللغة، وبقيت ما بين مفترق الفلسفة والأنتروبولوجية وعلم الاجتماع والتقاليد الشعبية (نفس المرجع السابق، ص ٨). كما أن اللسانيين لم يولوا بدورهم هذا الجانب ما يستحقه من العناية إلا منذ فترة وجيزة، وظلت جهودهم العلمية محصورة في نطاق نظرية الاكتساب اللغوي ومراحلها، والاتصال واشتغال اللغة، وقد لاحظ دوبسير Debyser أنه اذا كان بالإمكان أن نقارن كما فعل دوسوسور De Saussure اللغة بلعبة الشطرنج مع قطعها ونظام قواعدها، فإن ما يهم اللساني في الأغلب هي القواعد التي تضمن الاشتغال الداخلي للنظام، وإذا ما استعرنا تعبير دوسوسور (نحو اللعب) فإن ذلك هو ما يعيق ويغير القواعد (نفس المرجع السابق).

وإذا كانت الدراسات اللسانية وخلال أكثر من نصف قرن تقريبا قد استطاعت أن تطور البحث اللغوي في مناهجه وتوجهاته وأحدثت بذلك ثورة في المجال اللغوي فإنها مع ذلك لم تذهب إلى ما هو أبعد، ويعلق دوبسير في هذا الصدد على مساهمات ياكبسون الذي يعتبره سلطة لغوية وقد خص اللغة بكل أنواع الوظائف ليس فقط فيما يتعلق بفهم التجربة والتواصل ولكن فيما يخص التعبير عما نحس والتعرف والتعامل مع الآخر، ولكنه مع الأسف لم يذهب إلى نهاية حدسه وبقي مسجون مجتمع جيل البنيويين والوظيفيين.

ويركز دوبسير على أراء Winnicott الذي توفق حسب رأيه عندما عبر بقوله "أنه يوجد عند الطفل مجال للتجربة، والتي ليست كلية داخلية (واقعية الداخل ذاتية) ولا كلية خارجية (واقعية الخارج غيرية ثم موضوعية) إلا أنها وساطة تحولية – ويضيف وينيكوت – أن هذا المجال هو في استمرارية مباشرة مع مجال اللعب للطفل" (نفس المرجع السابق)، ويضيف وينيكوت "لقد أدخلت مصطلحات الأشياء التحولية والظواهر التحويلية لتعيين وساطة التجربة التي تقع ما بين الإبهام والدب المخملي، وما بين الإشارة الجنسية الشفوية والعلاقة الحقيقية للشيء" ويطور وينيكوت افتراضاته في اتجاهين:

١ - أن المجال التحولي هو بامتياز (مجال اللعب) وعلى قاعدة اللعب ينبني كل الوجود التجريبي للإنسان.

٢ - والاتجاه الثاني هو "أن مجال اللعب هو بدوره مجال الخلق" (نفس المرجع السابق) والخلاصة التي ينتهي إليها دوبسير وهو يعرض لمحور آراء وينيكوت مع تأكيده على أن تعريفه للخلق يبدو فضفاضا وعائما، وأن ما يكتبه حول الأشياء واللعب التحولية يمكن أن نطبقه بدون مجاز على الكلام بمعنى أن:

- الكلام في الواقع مثل المادة التحولية هي قاعدة الإشارة الشفوية والارتياح ولكنه يتجاوزها.

- وليس كليا داخليا ولا كليا خارجيا، إن الكلام مثل الأشياء التحولية أو على الأصح يقع في حدود ما هو خارجي وداخلي.
- وليس كليا موضوعيا ولا كليا ذاتيا، وإن الكلام هو الدعامة المثالية لكل التمثلات الرمزية وتنظيم التجربة.
- إن الكلام يخرج من الفم والكلمات تطير، تردد صوتيا أو تكتب، الكلام شخصي ولكن يمكن أن نعتبره (غير الأنا) كل ما تقوله يمكن أن يتحول ضدك.
- الكلام هو إحدى اللعب الأولى، إلا أنه لعبة تتهيأ لخلق لا محدود.
- إن تعيين أو إقامة رغبة الكلام بواسطة اللعب الشفوي وتقنيات التعبير معناه إيجابية المكافأة للتجارب الأولى التحولية (نفس المرجع السابق).

لقد تعمدت إيراد هذه الخلاصة لأنها تشكل بالنسبة لي الإطار المعرفي لأي تجربة تربوية تهدف إلى إقامة أسس قواعد تعليمية منذ المهد، والتعامل مع الكلام على أساس لعبة لا متناهية هو ما يؤسس دعامة جديدة للانفتاح على الخارج وتجاوزه مع كل أشكال اللعب الأخرى التي أحدثها المربون ولو مع بقاء التساؤل في حدودها وفعاليتها.

إن المتأمل في مقولات بياجي حول اللعب والأطفال، يشعر بأهمية الإضافات التي أضافها لمعالم التربية، من هنا نعتبر كل مؤلفاته تشكل أرضية هامة للتأليف المدرسي لما أضافته من مساهمات نظرية وابستمولوجية في مجال عالم الطفل، واعتماد أطروحاته وتصنيفه لأطوار المعرفة عامل هام لوضع تصور عملي لجانب من جوانب العمل المعجمي واكتساب اللغة وتعلمها.

يرى بياجي أن كل طور من أطوار النمو عند الإنسان يتأسس وينبني على ما سبق ويعتبر قاعدة للأطوار السابقة واللاحقة. فإذا كانت الفترة الحسية الحركية والتي تستغرق ثمانية عشر شهرا تشكل جوهر وجوده في النمو والتطور حيث يملك الطفل القدرة على التمثل والتكيف وابتكار وسائل جديدة لممارسة إنجازاته البسيطة والمعقدة في آن واحد، فإن أهم شيء في هذه الفترة هو اندماجه الكلي في العالم وعدم القدرة على تمييز أناه عما عداه. إن العامل الأساسي هو اكتسابه للمعرفة بالفعل لا بعملية تكوين الألفاظ وحدها فحسب على حد تعبير بياجي (نفس المرجع السابق).

إن هذه المرحلة أساسية في تشكل المعرفة الأولى حيث تنطلق الكلمات الأولى مع فهم أولي للأشياء البسيطة المرتبطة أساسا بوجوده الأكل وأدوات اللعب وبعض أعضائه، إنها فترة الكلام بامتياز والتي تتمحور حول فترتين.

- فترة اللغة الصغيرة التي يبدع فيها الطفل مفرداته واستعمالاته الخاصة به.
- فترة اللغة التي تبدأ معها عملية التكيف مع لغة الجماعة التي يرتبط بها.

إن الهدف من هذه الرحلة وقبل التمكن من القراءة هو أن نجعل الطفل يتكلم عندما تتوفر الشروط الضرورية التي تجعله مرتاحا في البيت والمدرسة والشارع وحيث تتكون لديه الرغبة في التعبير وإيصال ما يريده الى الآخر وإدماجه في عالم الدلالة وفك الرموز،

وكل ما يمكنه من إعمال الفكر والمنطق حسب تصوره للأشياء، وحيث يتمكن بواسطة مخزونه من الألفاظ والتعابير ليعيد ترتيب معلوماته وتصنيفها.

إن الحاجة الفطرية عند الطفل للكلام تفرض الرعاية والعناية بتوفير الشروط الضرورية والتي من بينها الأداة المعجمية ليتهيأ للقراءة ثم الكتابة، والانطلاق نحو التعبير الشفوي الكلام.

إن الطفل يتكلم لغة البيت بسهولة خارقة بمجرد ما يشعر أنه أصبح بمقدوره التلفظ، وهذه القدرة يكتسبها بالنظرة والمحاكاة والملاحظة وتسمح له بأن يكون فكرة أو سلسلة من الأفكار.

إن من أهم الصعوبات التي يواجهها الطفل العربي هو شعوره أن عليه أن يتعلم لغة جديدة من حيث التركيب وطريقة التلفظ بالكلمات تختلف عن لغة البيت والشارع، إن هذه الصعوبة يمكن تجاوزها إذا عرفنا كيف نهيئ شروط الاتصال الطبيعي باللغة العربية الفصحى قبل بدء مرحلة القراءة والكتابة، إذ أن نظامها التركيبي واشتغاله يمكن تطويعه بسهولة إذا كان الطفل مزودا منذ البداية بزاد من الألفاظ والعناصر اللغوية الضرورية، انطلاقا من البيت والأدوات السمع البصرية التي أصبحت تحتل مكانتها كعملية إجرائية أولى.